15-11-2015

الشيخ جمال الدين سيروان

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وأميرنا وشفيعنا وقرة أعيننا محمد وعلى آل بيته الأطهار وصحابته الأبرار وعمن سار على دربهم في هذه الدار، اللهم برحمتك يا عزيز يا غفار، اللهم برحمتك يا حليم يا ودود، اللهم برحمتك يا أرحم الراحمين، نسألك اللهم أن تحرسنا بعينك التي لا تنام، وأن تكنفنا بركنك الذي لا يرام، وأن ترحمنا بقدرتك علينا لا نهلك وأنت رجاؤنا، لا نهلك وأنت رجاؤنا، لا نهلك وأنت رجاؤنا، اللهم إنك ترى ما نزل بنا، اللهم إنك ترى ما نزل بنا، نسألك اللهم أن تفرج يا ربنا همومنا، وأن تنفس كروبنا، وأن تقضي حوائجنا، وأن تكشف عنا ما نزل بنا بقدرتك يا رب العالمين، اللهم اشتد الكرب، وعظم الأمر يا قوي يا قادر، نسألك اللهم بقدرتك على كل شيء وأنت مالك الملك أنت القهار وأنت الجبار، نسألك اللهم بقهرك يا ربنا يا الله أن تقهر أعداءك أعداء الإسلام، اللهم شتت شملهم، وفرّق جمعهم، وأفسد تدبيرهم، واجعل تدبيرهم تدميرهم بقدرتك يا رب العالمين، اللهم لا حول لنا ولا طَوْل، اللهم لا قوة لنا، اللهم استندنا إليك يا خير من يُستند إليه، ورجعنا إليك يا خير من يُرجع إليه، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، اللهم أنقذنا يا ربنا مما نحن فيه بقدرتك يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نسألك يا ربنا كما أنقذت إبراهيم من النار أن تنقذنا من نار الجحيم، وأن تنقذنا من نار هؤلاء المجرمين، اللهم اجعل نارهم عليهم، اللهم اجعل أسلحتهم عليهم، اللهم ردها في صدورهم، اللهم اجعلها في أهليهم بقدرتك يا رب العالمين، اللهم انتصر لنا انتصارك لأحبابك على أعدائك، اللهم انتصر لنا انتصارك لأحبابك على أعدائك، اللهم انتصر لنا انتصارك لأحبابك على أعدائك، اللهم لا تمكن الأعداء فينا، ولا تسلطهم علينا بذنوبنا بقدرتك يا رب العالمين، نسألك اللهم رضاك لا تشغلنا بسواك فرحنا مولانا عند لقاك، نسألك حبك وحب من يحبك وحب عملٍ يقربنا إلى حبك برحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم واجعل جمعنا هذا جمعًا مرحوما، وتفرقنا من بعده تفرقًا معصوما، لا تجعل فينا ولا معنا ولا منا ولا إلينا شقيًا ولا مطرودًا ولا محروما، واجعلنا جميعًا ربنا من المقبولين، اللهم اجعلنا من المقبولين، اللهم اجعلنا من المقبولين، ولا تجعلنا من المطرودين برحمتك يا أكرم الأكرمين، اغفر اللهم لنا ولآبائنا ولأمهاتنا ولأزواجنا ولذرارينا ولأشياخنا ولذوي الحقوق علينا ولإخواننا الحاضرين والغائبين ووالديهم وللمسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

أيها الأحبة الكرام، أحداث تتوالى، مصائب تتعاقب، كوارث تتكاثر، مِحَن تأتي من هنا ومن هناك، وكل ذاك ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. ليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، معادلة إلهية ربانية، ولكنها معادلة لمن أخذوا بزمام الميثاق، فالله تعالى قد أخذ ميثاق على بني إسرائيل، ولكنهم بدّلوا وحرّفوا، فقال الله عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾. والميثاق إنما هو نداء من الله، وهبة منه، وعطاء من لدنه، فلما يقول العرب بالميثاق إنه يأتي من الثقة، والثقة الاطمئنان، فأنت حين تقول إن لي موضع ثقة عند فلان، أو إن فلانًا موضع ثقة عندي، فإن ذلك إنما هو اطمئنان تام لمن وثقت به أو وثق به، ولذلك كان الميثاق اطمئنانًا، ولكنَّ الميثاق إنما يأتي من خلال حزم مكين، وعزم أكيد، ولذلك الله تعالى قال لكم في سورة محمد ﷺ: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. والوثاق إنما هو الربط الشديد المُحكَم، ولذلك فإن الميثاق الذي يعطيه ربنا عز وجل لعباده، وينزّله من لدنه على رسله، إنما هو الحزم والعزم، ولذلك لما يكون الحزم الموثّق والعزم المؤكد، فحينئذٍ يكون الاطمئنان التام في القلوب، فتحمل كلمة الميثاق هذه المعاني التي جاءت العربية تحتويها ، ما بين اطمئنان إنما كان نتيجة لمقدمة، وهي ميثاق مؤكد، وعزم محدد، وحزم تام، أنزله الله عز وجل بيقين لا تردد فيه، وبحقيقة لا يمكن أن تتغير، ذلكم هو الميثاق، فأخذ الله الميثاق، ولذلك الله تعالى قال: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. الله تعالى يقول للأزواج الذكور: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. هذا الميثاق الذي يربط به الإنسان المتزوّج مع زوجه، ذلكم أن يقول والله تزوجت زوجتك، ويقول: قبلت، هذا العقد ميثاق ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. هذا الميثاق ما جعله

الله عز وجل من سنته في أن يكون الزواج قائمًا بين اثنين، ولكنَّ هذا الميثاق يفضي إلى الاطمئنان بعد أن يكون الميثاق منزَّلًا بحقيقته، فإذن لما نقضوا الميثاق ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾. وجعلنا قلوبهم قاسية، إذ أن هذه القلوب كلما كثرت الذنوب وران عليها ذلك الوِزر، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. إذن إنها سنة إلهية، ما ذكرها الله تعالى في القرآن من قبيل أن نتذكر أمة لأجل أن نلعنها أو نرجمها، إنما ذكرها الله عز وجل ليقول لنا إنما أنزلت على أمة محمد عليه الصلاة والسلام ميثاقا، ألا وهو كتابي، ألا وهو القرآن الذي به تحديت به خلقي إلى يوم القيامة، ألا هو المنهج الذي جعلته سواء صراط للإنسانية، فمَن أراد أن يزْوَرَّ عنه، أو أن يبدل فيه، أو أن يجعله نقضًا للميثاق، أو أن يدعي من خلاله ما يسوغ به جريمته، ألا ترون أولئك المسوغين للجرائم يستخدمون القرآن الكريم في نقض الميثاق، ذلك أنهم كما قال القرآن ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾. يحرِّفون الكلم عن مواضعه، وقد قرأت تقريرًا لوزير إعلام سوري قبَّح الله وجهه، وأرْدَاه في جحيم، يقول: إننا نحن من صنعة الله، والله لن يدعنا لأننا صنعته، صنعة الله، صنعة الله الجريمة؟ صنعة الله الفتك بالأعراض؟ صنعة الله تيتيم الأطفال؟ صنعة الله تهديم البلاد؟ هكذا هي صنعة الله؟ هؤلاء المجرمون الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. إذ أن هذا الحظ الرباني العظيم الذي أفاءه الله تعالى على خلقه من خلال عطائه عبر الرسالات التي بلغها المرسلون إلى الناس، ثم كان خاتمهم وسيدهم، وأولهم وآخرهم، رسول الله ﷺ، فهؤلاء إنما كانوا قد نسوا ذلك، فنقول لأنفسنا ولكل مسلم: نسأل الله ألا يجعلنا ممن يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا من يبدلون القول الرباني عن حقيقته، وألا ننسى حظًا مما ذُكِّرنا به، فقد ذكَّرنا الله تعالى في القرآن سنته الماضية في نصرنا، وهي أن نكون أمة واعية، ولذلك القرآن الكريم إنما ذكر عن تلك الأذُن التي ينبغي أن تكون قائمة في كل مسلم ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾. وليست أذُن معرضة، ليست أذنًا معرضة، الأذن الواعية التي تستوعب ما يقال، حتى يقول بلال أحد أحد لا أشرك بربي أحدا، وحتى يسطع نور الإسلام في قلبك قبل أن يسطع نور الإسلام على غيرك، فما لم يسطع نور الإسلام في قلبك، فلن يسطع نور الإسلام على غيرك من خلالك، ينبغي أن يكون قلبك مستودع أسرار ربك سبحانه وتعالى ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾. ربانيين، والرباني هو الذي لا يمكن أن يجد لنفسه حظا، ولا أن يجد لذاته نصيبا، وألا يدور حول أناه، وألا يقول أنا، إنما يقول: أنا عبد الله، كما قالها المصطفى سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : أنا عبد الله ورسوله، هو محمد ﷺ، تأتيه السائلة تسأله، وتقول له في سورة سماها الله سبحانه وتعالى المجادِلة، ولكنه لما لم يكن له من الله أن أوحى إليه شيئًا، فما كان له أن يقول إني أعلم، قال إني لا أعلم أمرًا حتى يعلمني الله عز وجل بحقيقته.

لذلك يا أحبتي الكرام، نحن أمام هذه الأزمات تعتصر قلوبنا، تؤزم نفوسنا، تبكي عيوننا، تجعلنا في حيرة من أمرنا، واضطراب في تحليلنا، صحيح ذلك كله، أنا معكم وأنتم، وليس من أحد منا يدعي أنه استطاع أن يقف على كتف الحقيقة، بل لم يستطع أن ينظر إليها ولا أن يعرف سبيلها، لأن مجرمين إنما يخططون لهذه الأمة بما ترون من هذه التخطيطات الماكرة، ولكني أعلم علم اليقين أني إن استمسكت بدرب رب العالمين، فهو الذي قال لي: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. أعْلَم هذا علم اليقين، ولكنَّ يقيني ينبغي أن يتحول من مشروع فكريّ، وإيماني، وقلبي، إلى تنفيذ واقعي، لا يمكن لكل مشروع أن يكون له دلالة ما لم يكن له في أرض الواقع سطوع، لذلك المصطفى صلى الله وسلم وبارك عليه حين أنزل الله تعالى القرآن عليه، لما ذكر الله لكم في سورة المعارج: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾. إلا، إلا فطرة جعلها الله في الإنسان بحب التملك، وبحب البخل، وبالشُّح، كما ذكرت في الدرس الماضي، حين قال الحق عز وجل: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾. أرأيت كل هذه المواصفات؟ هذه المواصفات التي جعلها الله تعالى لمن سيقول لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾. ويقول لأولئك المدّعين المتنطعين المهطعين: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾. ما العزون؟ ما العزون؟ أنا أجمع عزى قلنالكم إياها خلص مشي الحال، هادا عزون جمع عزى، كُثُبَ تجمع على ثُبين، وعِزى تجمع على عِزين؛ إلحاقًا بجمع المذكر السالم، والعزى الفرقة، والجماعة، والطائفة، ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾. مصوبين الأنظار إليك، يرقبونك في كل لحظة، ويخططون المكر في كل دقيقة، ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

محال، كلا، محال، لا يكون لهؤلاء أن يكون لهم جنة النعيم، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن أقبل على الحبيب ﷺ بقلبه، وعقله، وفكره، وعزمه، لا بد أن تجتمع هذه المواصفات في الفرد المسلم حتى يستطيع أن يكون ممن لم يبدل كلام الله ولم يحركه عن موضعه، ما لم يكن المسلم على هذه المواصفات التي ينبغي أن يكون عليها، فليس المسلم المقصود، إنما يصبح نسأل الله تعالى السلامة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾. فالجزاء من جنس العمل، نسيت فتُنسى، ذكرت فتذكر، فنسأل الله أن يجعلنا من الذاكرين، الذين إذا ذكروا الله عز وجل أشرقت قلوبهم بنور معرفته، وفاضت أرواحهم لتلقي نفحاته، هذه الفيوضات التي تأتي إلى القلوب من خلال علام الغيوب إنما تكون من خلال أمثالكم ممن آمنوا بالله تعالى وازدادوا هدى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. فاللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

مقدمة بين يدي ما سنتحدث عنه، ولو أنه لا صلة لها ولها صلة، ذلكم أن المصنف -يرحمه الله تعالى- في الكتاب الذي نقرأه وصل إلى كتاب اسمه: كتاب الأيْمان والنذور، كتاب الأيْمان والنذور، ولقد كان الناس يثقلون في أيمانهم، ويحلفون بما يجدونه بأنه معظَّم لديهم، ولكنَّ الإسلام جاء يحرر المسائل، وينقِّي المقاصد، ويوضح السبيل، ويشرق الدرب، ويقول للناس: إنها سبيل واضحة ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. فهنا هذا الباب باب الأيْمان والنذور، الأيمان والنذور القرآن الكريم قد حدّثنا عن ذلك حديثًا فائضًا، إذ أن القرآن الكريم لما حدثنا عن ذلك، إنما حدّثنا حتى يكون الميثاق الذي يحلف الإنسان به ميثاقًا مؤكدًا، ولذلك الله تعالى إنما حذرنا من أن يكون الله عرضة لأيماننا ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾. ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم، إنما عليكم إذا أردتم أن يكون الحَلف، فيكون الحلف على أمر مؤكد ولضرورة، وإن أردتم أن تحلفوا، فإياكم أن تبادروا إلى ذلك إلا وأنتم تعلمون علم اليقين بالصدق الذي تحلفون عليه، فإذا حلفتم على صدق فعليكم أن تحلفوا، وإياكم أن تخافوا، وخاصةً إذا كان الحَلِف لإثبات حق لآخر، فإياكم أن تتوانوا أو تتخلوا عن هذه المهمة في إحقاق حق، وإبطال باطل، لذلك مرة ذكرت لكم قصة لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما تلاحم مع سيدنا أُبيّ بن كعب، أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه، ومن هو أبي، كلكم يعلم أُبيًّا ومنزلته عند الله عز وجل، وهو الذي أمر الله تعالى الحبيب المصطفى، والرسول المجتبى، وسيد الخلق ﷺ أن يستمع القرآن من أُبيّ بن كعب، وجاء أُبيّ إلى المصطفى ﷺ يطالبه، وسيدنا رسول الله "أي أُبيّ، أسمعني كلام الله" يا رسول الله، أوَ أتلو القرآن وعليك أنزل القرآن؟ قال: "إن ربي أمرني أن استمع القرآن عليك يا أبيّ" فارتجف أبي في قلبه وعقله، ومشاعره وجسمه، وارتعش منه وجوده، وقال: يا رسول الله، أسمّاني ربي؟ قال: "سمّاك ربك" هذا أُبيّ بهالمنزلة هو بشر، الذي سماه الله بشر، فإذا به اختلط عليه حال بأن أرضًا، اختلط عليه الحال، ما كان عندنا تقسيم الأراضي كما هو الآن، فأراض موجودة، وجاءه تخيل وتوهم أن أرضًا هي له، فراح يسوّرها، رآها سيدنا عمر فجاء بأُبيّ: كيف تسور أرضي يا أبيّ؟ قال: هي أرضي يا أمير المؤمنين، فالخصومة إذن بين من ومن؟ بين الأكابر والكرام، بين عمر بن الخطاب صاحب العدل، وزكيّ المقام، وبين أُبيّ من ذكره الله عز وجل لحبيبه الأعظم في هذا المقام الأعظم، بأن استمع القرآن منه، طيب كانت المشكلة بين الأكابر هذه تنتهي أنه يا أما سيدنا عمر يتنازل، يا سيدنا أبي يغض الطرف وانتهت القضية، ولم يقع عليها صك، ولا يطلع عليها إلى آخر ما تعلمون أو لا تعلمون، فإذن ما الأمر؟ قال الأمر العدل، ما العدل يا أمير المؤمنين؟ أن نتقاضى، أنا الآن وإياك متخاصمان، فأنت مدّعٍ وأنا مدّعًا عليه، فبدنا حكم، لا بد من القاضي، قال الشيخ ممتاز: ما حطه بالسجن؟ لا والله ما حطه بالسجن، أترضى بزيد بن ثابت حَكَمًا بيننا؟ وزيد بن ثابت من شباب الصحابة، سيدنا زيد بن ثابت من شباب الصحابة رضي الله تعالى عنه، قال: رضينا بزيد بن ثابت، فذهبا إلى زيد رضي الله تعالى عنه، وطُرِق الباب، فرأى أمير المؤمنين ورأى أبي بن كعب، فانفضَّ عرقًا، واضطرب أمره، قال له: يا أبيّ قبل أن ندخل، جئنا خصمين نتقاضى إليك، قال: أرحب بأمير المؤمنين، قال: ويحك، هذا أول جور جرته، أرحب بأمير المؤمنين؟ أنا خصم وهذا خصم، اثنين مع بعضنا نحنا، متساويان، دخل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، فارتبك، أنت بتتصور دخل سيدنا عمر عليك، وكان عنده بقى القصر المنيف، وعنده الفرش والأثاث، وعنده هذه يعني المنتجعات الجميلة، وعلى ضفاف الأنهار، وعلى سواحل البحار، ولا هاد المنتزه الصيفي والمنتزه الشتوي، فعنده سيدنا زيد رضي الله عنه كان وسادة، فأراد يجعلها لسيدنا عمر، فقال يا زيد، ما بالك؟ أهكذا القاضي يجور؟ كيف تعطيني ما لا تعطي خصمي؟ إن أردت أن تعطينا الأثنين بتعطونا كل واحد وسادة، طيب، استمع للقضية، قال له: بيّنتك يا أبيّ؟ قال له: ما عندي بينة، بس هي الأرض أرضي، أعطينا بينة يا أخي، فالبينة؟ على المدعي، واليمين؟ على من أنكر، هنا احمرَّ وجه زيد وازداد اضطرابًا على اضطرب، لأنه الحل هو أن يتوجه لسيدنا عمر أن يحلف

اليمين، فهو توجه لسيدنا أُبَيّ بتلاميح وجه، بنظرات عينيه، بإيحاءاته، أنه يا أُبيّ يعني كما يقولوها أهل الشام لُفًّا، أي لُفًّا يا أخي خلاص يعني، أنهي هالقضية، وأُبيّ مصمم، فنظر سيدنا عمر رضي الله عنه، ثم سيدنا زيد خرجت منه، وقال: أعفي أمير المؤمنين من اليمين، يعني زودتها أنت يا أخ، أعفي أمير المؤمنين من اليمين، أعفي أمير المؤمنين من اليمين، فغضب سيدنا عمر غضبًا شديدًا، قال: يا زيد، أرحب بأمير المؤمنين، وسادة لأمير المؤمنين، أعفي أمير المؤمنين؟ لا تقاضيت إليك بعد اليوم، ولكني والذي بعث محمدًا بالحق سأحلف، فإني لأقسم بأن هذه الأرض هي أرضي، خلص انتهت القضية، الأرض أرض من صارت؟ أرض سيدنا عمر، ثم انهلّت دموع عمر رضي الله عنه، وقام يعتنق سيدنا أبَيًّا، قال: يا أُبيّ، الأرض أرضي وقد وهبتكها، شايفين هادا؟ فالأيْمان هكذا الأيْمان ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾. لذلك بيقول لنا المصنف -يرحمه الله- لا يكون القسم إلا باسم من أسماء الله تعالى، فلا أقسم لا بأبي، لا بأبوك، ولا بجدّك، ولا بعمك، ولا بخالك، ولا بولادي، يعني الآن جاري على ألسنة الناس والله بولادي، أغلى ما عندي، شو ما بتصدقوني أنا عم أحلف بولادي، أيش بتحلف في أولادك؟ بتحلف بالله عز وجل، فإن كنت حالفًا فاحلف بالله، لا تحلف لا بالأنداد، ولا بالآباء، ولا بالأمهات، وإذا حلفت فعليك أن تحلف بالله سبحانه وتعالى وأنت صادق فيما تحلف، وإذا كان هذا الحلف كما قلت لهذه الضرورة، ولكنَّ الأصل ألا يحلف الإنسان، الأصل يعني الحلف مباح إذا كان بصدق، ولكن إذا كان في غنى عن ذلك فالأفضل ألا يعوّد لسانه على الحلف منزهًا اسم الله جل وعز عن أن يسقطه في كل لحظة في أي مناسبة من المناسبات إلا بمناسبة التعظيم، أما إذا كان كما فعل سيدنا عمر لإثبات الحق، أو لتنبيه الناس على قضية من القضايا، كما كان يفعل الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، لما كان يريد أن ينبّه أبصار الناس إلى الحقائق، ويقول: والذي نفس محمد بيده، وذلك لماذا؟ لينبّه الناس إلى قضية هامة، أنا أحلف، أنا محمد رسول الله ﷺ وإني لأوثق لكم ما أقول بأني أحلف بالله الذي نفسي بيده، بأنكم لتبعثن، فإذن هي عبارة عن أسلوب استفزازي للذهن ليتلقى المعلومة من خلال الرسول ﷺ، ولنا أن نقلده في ذلك؟ لنا أن نقلده في ذلك، فلو أقسمنا بأن الله تعالى لن يدع المؤمنين، فأقسِم بالله رب العالمين بأنه لن يترك المؤمنين، إنما يمحصهم وإنما سينزل الكافرين إن شاء الله عقوباته، عندنا يقين بذلك، ونقسم على ذلك لأنه كلام رب العالمين، ونحن على ثقة بربنا سبحانه وتعالى نعم، لذلك قال النبي ﷺ في الحديث: "لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون" قال المصنف: لا يكون القسم إلا باسم من أسماء الله تعالى، قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾. لما ربي سبحانه وتعالى قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. هذا بآخر يعني السورة اللي كنا عم نفسرها في الأول ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾. إذن إن هذا الذي وعد الله به حق، وإن الله سبحانه وتعالى يقسِم: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. يقسم سبحانه وتعالى بذاته جل وعز، بأن هذا الأمر يا عبادي تنبهوا إنما أقسم لكم بأنه حق ولا يمكن أن يتخلف، وأنه رزق ولا يمكن أن يتغير، وأن ما قسمته لعبادي لا بد ألا أن يصل إليهم، شاء من شاء وأبى من أبى، رضي من رضي وكره من كره، لا بد لما أجراه الله ولما قدره إلا أن يمضيه سبحانه وتعالى نعم، كذلك ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾. فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون، على أن نبدل خيرًا منهم وما نحن بمسبوقين، ما يمكن أن يكون هناك قدرة تسابق قدرة الله، فإن أجلَ إذا جاء لا بد أن يحصل، وإن قضاء الله إذا مضى سلا بد إلا أن يمضي، فلذلك ربنا تعالى أقسم أيضًا لتنبيه الأذهان إلى هذه الحقائق، ثم بعد ذلك يقول: عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: كانت يمين النبي ﷺ "لا ومقلب القلوب" لا ومقلب القلوب، يعني قَسَم عجيب جدًا، لا ومقلب القلوب، من يقلب القلوب؟ هو الرحمن، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولذلك لما ذكر الله عز وجل قوله منزله على نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. هنا بكى المصطفى ﷺ، وراح يدعو ربه سبحانه وتعالى "اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك" فندعو الله تعالى بما دعاه رسولنا الأعظم عليه الصلاة والسلام اللهم يا مقلّب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك إلى أن نلقاك برحمتك يا أرحم الراحمين، ليه؟ لأنه القلوب تتغير بلحظة، نسأل الله تعالى ألا يمتحننا بتغيير قلوبنا إلا إلى الخير، نسأل الله تعالى أن يثبتنا بقوله الثابت، وخاصةً في أيام المِحَن، وأيام الفتن، تُرتَهن القلوب يا إخوانا، وتضعف الهمم، وتفتر العزائم، وتتغير الأفكار، وتضطرب الموازين، ولذلك لا بد من أن يكون هناك دعاء يستنجد العبد بربه عز وجل أن يثبته بقوله الثابت، اللهم ثبتنا بقولك الثابت حتى نلقاك برحمتك يا أرحم الراحمين نعم.

وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد في اليمين، قال: "والذي نفس أبي القاسم بيده" يعني هو يقول عن نفسه والذي نفسي بيده، أنا نفسي، نفس أبو القاسم بيده، أقسم على كذا، وكذا، وكذا، وكذا عليه الصلاة والسلام، وذلك كما قلت إنما هو استفزاز للأذهان، لأجل أن تستوعب ما يقال من هذه الحقائق التي عليها أن تدركها، كذلك يقول النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، قال: "إذا هلك كِسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمدٍ بيده لتُنفقن كنوزهما في سبيل الله تعالى" يعني هذا حديث قد يكون في شيء من إشكال في فهمه وإدراك مقصده، قد يقال: كيف لا كسرى ولا قيصر؟ والآن ما زال هؤلاء الذين يلبسون ثوب الإسلام زورًا وبهتانًا ويريدون أن يرجعونها كسروية كما كانت، ويرجعون عبادة النار كما كانت باسم محبتهم للحسين، كذلك هؤلاء يريدون إرجاعها كسروية، أو أولئك قيصرية، نعم، أمر جارٍ، وهو صراع دائم، وربنا سبحانه وتعالى إذ أجرى هذا الصراع، لما قال لنا: إن هذا الأمر كان قائمًا قبل أن يأتي الإسلام، فلقد كان هؤلاء هم الذين سيطروا على الدنيا كلها، فكانت هناك المملكتان اللتان لا يمكن أن تنافَسا، لكن هاتان المملكتان لا بد أن يكون لهما شيء من قهر وشيء من ارتفاع، شيء من قهر وشيء من ارتفاع على حسب حال المسلمين، فالمسلمون إن كانوا أصحاب منهجهم، فيقبع الله أولئك ويحجِّمهم، وإن كانوا على غير منهجهم فإنهم يتقوون عليهم، إذن هو توصيف لحالة استقامة المنهج، فإذا استقام المنهج فيصير الاعتدال، لكن هل استقامة المنهج بإزالة الكفر؟ من قال لك ذلك؟ استقامة المنهج ليست بإزالة الكفر إطلاقًا، لأن الله تعالى قد قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ . فأنت لما بعثت يا محمد، ما بعثت لأجل أن ترغم الناس على الإيمان بهذا الدين ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. ما كان ذلك من نهج النبي ﷺ الذي علمه إياه ربه سبحانه وتعالى، إذن سيكون هناك مصاولات، محاورات، مناورات، دعوة إلى الله، هنا ينبغي أن نعلم بأن الإسلام علمنا بأن هذا الدين ينبغي أن نهديه للعالم بأحلى صورة من صوره، وبأجلى حقيقة من حقائقه، وبأبرع تنفيذ من تنفيذاته، حين يتجلى الإسلام في ذلك الأمر، حينئذٍ تكون دعوته دعوة مقبولة لدى الآخر أو مرفوضة، ولكن يغلب أن تكون مقبولة، وإذا قُبِلت فإن هناك فريقًا كبيرًا من الناس يبقون على ذلك الردى ولا يأتون إلى سبيل الهدى، ولا يفزعنا على الإطلاق أن يكون أولئك في الردى، نسأل الله أن يهديهم، ولكن لا يمكن لنا أن نرى بأن رداهم يمكن أن يغير هُدانا، بل إن هدانا ماضٍ إلى يوم القيامة، لذلك النبي ﷺ هنا يقول لنا اعلموا أن هذا الأمر لن يدوم بمعنى القمع، لأن أمة الإسلام لن تُستأصل، النبي ﷺ إنما دعا ربه بألا تستأصل أمته، فأعطاه ذلك، لما دعا ربه بألا يكون بأسها بينها شديدًا ما أعطاه ذلك، ممكن أن يكون البأس بيننا شديدًا، ممكن أن نختلف ممكن ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. كلو ممكن، لكن أن يستأصل الدين؟ هذا أمر محال، أن تستأصل أمة هذا الدين؟ هذا محال، فالدين باق ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. وأمته باقية، ضعُفَت أو قويت فهي باقية، وإن قوتها مرتبطة بتنزيل منهج ربها، وإذا ضعُف أمرها، فإنها تضعف أمام عدوها، ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام يوصِّف في هذا الحديث هذا المعنى الذي قلته، وهو أن أمة بعثها الله تعالى مع رسولها الأعظم بهذا المنهج الحكيم، الذي لو اتبعته فلن يكون لهؤلاء هيمنة تامة، وإذا ما اِزْوَرُّوا عن سبيل الهدى فالله يسلط عليهم أعداءهم، والله تعالى قد عامل ذلك بالمنهج، رسولكم المصطفى ﷺ حين كان بعض من أصحابه، وهو القائد ﷺ العسكري في ذلك الموطن، ولما كان يخطط عليه الصلاة والسلام في أُحد، كان ليس بمقام الرسول، كان بمقام القائد العسكري، لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله تعالى له بأن يجعل هؤلاء فوق ذلك الجبل، إنما كان من خلال التخطيط العسكري، فهم إنما خالفوا تخطيط قائدهم العسكري، والله سبحانه وتعالى بسنة التدافع، بسنة التنظيم، بسنة الإدارة، إنما أعطاهم ذلك الدرس القرآني، فقال الله سبحانه وتعالى، لما قال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. إذن هي سنة ربانية يذكرها ﷺ، بأن الوعد الرباني قائم، إذا هلِك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، بالمعنى الشمولي العمومي، إنما يكون بمعنى التنازع بين وقت ووقت، والذي نفس محمد بيده لتُنفقن كنوزهما في سبيل الله تعالى، كما جاءت تلك الكنوز بين يدي سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وكانت كالتلال فهي عند بيت باب المسلمين، وراح ينفقها رضي الله تعالى عنه على المؤمنين، وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ، قال: "يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا" فاللهم يا رب ارزقنا عينًا تبكي بخشيتك، وارزقنا قلبًا يتنعم بذكرك، وارزقنا نفسًا تخشاك في الغيب وفي الشهادة برحمتك يا أرحم الراحمين إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لكل خير، وأن نأتي بعد ذلك لإتمام ما يتعلق بالحلف وبالأيمان والنذور في درس قادم بعد الأحد القادم إن شاء الله، الأحد القادم أعتذر إليكم ليعني عارض سفر، ثم نعود إن شاء الله بعد الأحد القادم إن شاء الله، ونتابع مسيرتنا بمعيتكم، والآن لا بد لنا من تلك الوجبة التي ننتظرها، ومن تلك الإطلالة التي نتطلع إليها، ومن ذلك الرصيد الإيماني الذي نحيا به، ومن ذلك الحب لحبيبنا المصطفى ﷺ يتوقد في قلب أبي ياسر، ثم يمضي إلى حَنجرته، ثم يأتي إلى ألحانه، ثم يغشينا بفضل الله تعالى بصوته، بارك الله له قلبًا، وبارك الله له حَنجرتًا، وبارك الله له صوتًا، وبارك الله فيه بدايةً ونهايةً، يا أبا ياسر، أدلي بدلوك.